الكتب

من بلاغة القرآن

تأليف الأستاذ أحمد أحمد بدوي

المدرس بكلية دار العلوم

للأستاذ الظاهر أحمد مكي

عن الجزئية صدر الأستاذ أحمد أحمد بدوي عنوان كتابه وكان موفقا ، فإن التصدي لبلاغة القرآن كلا شيء فوق طاقة الفرد وجهد العقل ولهذا الكتاب قصة بدأت في يوم من العام الماضي بدار العلوم ، حين اختط الأستاذ لنفسه منهجا جديداً في تدريس البلاغة لطلابه ، فقد آثر الناحية التطبيقية ، على تدريس القواعد البلاغية ، كما تركها لنا القدامى ، ممزوجة بالفلسفة ، أو متأثرة بالمنطق ، وقد أصاب فيما ارتأى وما ابتدع ، فإن البلاغة ذوق وفن ، ومران وصقل ، وملكة وحاسة ، وهي عند تممها القراءة الرشيدة ، والدراسة الحرة ، والاطلاع الواسع ، والعزوف عما لنا من قواعد ونظم لا يتصل أغلبها بالذوق السليم

فالأستاذ أحمد بدوي إذن أراد أن يدرس لطلابه البلاغة في القرآن ، ولم يفرضه عليهم ، وإنما استشارهم فيه ، وكان لكاتب هذه السطور رأى يخالفه ، مؤثراً دراسة شاعر أو نتاج أديب ، ليكون مجال العقل أوسع ، وميدان النقد أرحب ، وتطبيقا لمناهج البحث الحديثة ، من تناول الموضوع خلوا عن أي فكرة سابقة ، وما في استطاعة مسلم أن يجرد نفسه من العاطفة ، ومن ظلال القدسية ، حين يعرض لدراسة القرآن الكريم !

وثمت أمر آخر أشد خطورة ، هو أن القرآن ليس نتاجا عاديا ، يخضع لقوانا وأبحاثنا وإمكانياتنا ، فمن الخير أن ندعه في عليائه ، نحسه بعواطفنا ووجداننا ، وتتغذى به حواسنا وشعورنا ، ونستلهمه فيما نكتب أو نفكر ، دون أن نحاول البحث عن السبل التي سلكها أو القواعد التي نهجها ، ولكن أستاذنا الفاضل ، رأى غير ما ارتأينا ، فدرس لنا الموضوع فعلا ، وأخرج نتائج بحثه مؤلفا ضخما ، بذل فيه مجهوداً كبيراً كنا نشفق عليه منه ، فقد تصدى لحل رسالة ينوء بها أعظم الناس عقلا ، وأكثرهم تفرغا لذات الموضوع ، فما بالك وهو يشارك في أكثر من ميدان علمي ، دارسا أو مؤلفا أو محاضرا ، وله أكثر من كتاب صدر في نفس العام ، تحمل دراسات قيمة ، توج واحداً منها مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وهو دراسة عن (رفاعة بك الطهطاوي) فنال عنه الجائزة الأولى في المسابقة الأدبية التي أقامها لعام ١٩٥٠

ولكن إلى أي حد نجح أستاذنا في محاولاته ؟ ... إنه عرض علينا صورا طيبة ، لدراسة عالية في أساليب (القرآن) تحمل العمق والجدة ، والإحاطة والشمول ، والإلمام الواسع باللغة و شتى مناحيها ، أما النتائج التي قصدنا إليها فلم نبلغ منها إلا القليل ، ذلك أن قاعدة واحدة من قواعد النقد الأدبي أو النحو أو البلاغة ، أو حتى الصرف ، تستطيع أن تطبقها على القرآن أو تستخرجها منه ، دون أن تصطدم بما ينقضها في مكان آخر ، لأن القرآن لا يلتزم في نهجه طريقا واحدا ، حين يغزو المشاعر والأحاسيس ، مادحا أو قادحا ، مهاجما أو دافعا ، مرغبا أو مزهدا ، واعدا أو موعداً ، ومن ثم فقد اضطر أستاذنا إلى نفس الطريقة التي لجأ إليها أسلافنا من التأويل والتخريج ، وصرف الكلام عن ظاهره ، وهي طريقة إن صحت في ميدان التشريع والتفسير ، فلا تحمد في ميدان البلاغة بحال

على أن للكتاب أهمية قصوى ، لا تتأتى من عرضه لصحائف من القرآن في صورة جديدة فحسب ، وإنما لإثارته أكثر من قضية أدبية ، فهو يحدثنا عن هدف الأدب (ص ١٢) فيقول (والحق أننا نقف بهذا الهدف ، عند حد الإثارة الوجدانية ، فلا نطلب منه أن يمدنا بأفكار صادقة عن الحياة) وهو كلام يستدعي النظر طويلا . أما أن الأدب إثارة وجدانية فأمر لا مراء فيه ، وأما عدم اشتراط الصدق ، فأمر يرفضه الأدب بمعناه الحديث ؟

لأن البساطة والصدق هما أخص مميزاته ، أما الأدب المنافق المرائي الذي شهدته العربية تشهده في عصور الضعف والاستعباد فرهون بظروفه ، وسينتهي يوم تشيع الحرية والكرامة في أرجاء هذا الوطن العزيز ..

ثم ، ما هو التعبير الإيحائي الذي لا يعده الأستاذ من الأدب أو الفن الجميل (ص ١٨) وما الفرق بين الإثارة الروحية والإثارة الجنسية ؟ إن الكاتب قد يعرض لموضوع جنسي ، معللا في قصة ، أو مبحوثاً في مقال ، فيقرأه من سمت تربيته فلا يراه إلا روحيا خالصاً ، ويقرأه من عاش في بيئة متحللة ، فلا يلمس فيه إلا استفزازاً جنسيا ، فليس هناك تعبير جنسي وتعبير روحي ، وإنما هناك قابلية روحية وقابلية جنسية ، وهو يحدثنا عن المنهج الأدبي في القرآن (ص ٣٧) « وأعني بالمنهج الأدبي هذا الذي يتجه إلى إثارة وجدان القارىء ، إثارة روحية رفيعة » ثم يستشهد له بما لا يمت إلى الروحية إلا بسبب واهن ضعيف ، في آية « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ... » لأن صحبة الأنبياء ورفقتهم هنا ، ليست مرغوبة لذاتها ، وإنما لأن هؤلاء مأواهم أعلى درجات الجنة ، فمن صحبهم كان معهم . والجنة فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فالإثارة هنا مادية لا روحية فيها ...

والحق إن إثارة القرآن كلها من النوع الهادي ، فقد نزل يخاطب قوما ماديين ، ومن ثم فقد أصحب كل وعوده ومواعيده ، الجنة بما فيها من خيرات ، والنار بما فيها من عذاب ، فهو يدعوهم إلى الخير ، لا لأنه فضيلة في ذاته ، وينهاهم عن الشر لا لأنه رذيلة في ذاته ، ولو فعل ذلك لما وجد سميعا ، وإنما يدعوهم إلى الخير لأنه يؤدي إلى الجنة ، وينهاهم عن الشر لأنه يؤدي إلى النار ، والقرآن حين يحدث مخاطبيه عن الجنة ، لا يحدثهم عن أي جنة وكفى ، وإنما يقول « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ... » ثم بعد ذلك « ... ومغفرة من ربهم » فهل هناك إثارة مادية أبلغ من هذا ؟ ولم يفت أستاذنا هذا الوضع ، فراح يستثنيه مع أنه الأصل ، ويؤوله ليستقيم مع حكمه الأول ، من أن إثارات القرآن كلها وجدانية روحية خالصة

والقرآن معجز ، وإخفاق العرب عن الاتيان بشبيه له أو ضريب — وإن قل — حديث مستفاض ، ولكن وراء هذه القضية أكثر من علامة استفهام ، فإن الذين رماهم القرآن نفسه بلددهم وشدة خصومتهم ، لم يحفظ لنا التاريخ من حججهم شيئاً ، ماذا كان ردهم على القرآن ؟ .. ما هي أنماط المحاولات التي فشلت ؟ على أي أسلوب جرت ؟ .. من هم الذين قاموا بها ؟ . التاريخ يصمت ، ونحن نتابعه في صمته سوقين ، وأستاذنا يخطئ مذهب الصرفة (ص ٤٩) « إنه لو عجز العرب عن المعارضة بالصرفة ، لما استعظموا من بلاغة القرآن ، وتعجبوا من فصاحته ، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال : « إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لطلاوة ، وإن عليه لحلاوة » وقصة الوليد هذه تصطدم بها في كل كتاب وكل بحث ، وقد تجد لها شبيهاً في قصة إسلام عمر ، ولكنك لن تجد للقصتين ثالثة ، ترى هل كان الوليد بن المغيرة كل شيء في مكة حتى يؤخذ سوادها برأي ارتآه ؟ قضية علمية كانت تستلزم أكثر من هذا المرور السريع !

ثم هذه الآية التي عرض لها (ص ٦٣) ثم غفل عن المشكلة التي صحبتها ، من يوم أن قرأها المسلمون حتى اليوم ، آية « إن هذان لساحران » ماذا وراء هذا الرفع المنصوب ؟ أهي لغة ؟ أهي لهجة ؟ إنها لم ترد في القرآن على هذه الصورة إلا مرة واحدة ، وما كنت أريد بتعرضه لها أن يعيد على أسماعنا تأويلات النحاة الفجة ، وإنما كنت أريد لها تفسيراً جديداً في ظلال الإمكانيات الواسعة التي يتمتع بها العالم الآن !

وفي فصل « الفاصلة » بحث قيم مفيد ، ونهج جديد مشكور ، ولكن محاولة إخضاع الفواصل في طريقتها لقاعدة ، أجهدت الأستاذ كثيراً ، ثم انتهينا إلى لا قاعدة ، ففي (ص ٧٧) « وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » فهو عليم بخيانتهم ، حكيم في التمكن منهم . ترى لو استبدلنا العلم بالعزة ، فقلنا « والله عزيز حكيم » عزيز لا ينال ، حكيم في التمكن ، هل يحدث ارتباك ما ؟ هل يشعر القارىء أن هنا لفظاً مضطرباً ؛ أو كلمة قلقة ، أو معنى غير موائم ؟ ...

وفي فصل « الغريب » جملة تحتاج إلى شيء من التقدير

(ص ٨٩) « فكان العرب فى عصر نزول القرآن يفزعون إلى كبار الصحابة ، يسألونهم عن معانى هذه الألفاظ الغريبة ، فيجيبونهم ويقربون لهم هذه المعانى ، مستشهدين بأبيات الشعر . والواقع أن قدرة الصحابة على فهم القرآن لم تكن فى درجة واحدة : فكان منهم المثقف ثقافة أدبية ممتازة ، ولم يكن ما نسميه الآن غريبا بغريب عند هؤلاء الذين يحداهم القرآن ، فلم يكن استخدامه حينئذ معيباً ولا مستكرها ، ومثال ذلك استعمال عباقرة الشعراء ألفاظاً يعرفها جمهور المتأدبين ، ويتذوقون جمالها ، وإن كانت غير دائرة على ألسنة العامة » فكيف كان بعض العرب يفزعون إلى الصحابة يسألونهم عن الغريب ، وكيف أن ما نسميه غريباً لم يكن بغريب عند هؤلاء الذين تحداهم القرآن ؟ ويستشهد أستاذنا لقضيتـــه بما يستعمله عباقرة الشعراء ، وهو قياس مع الفارق الكبير ، فلم تكن هناك فوارق شاسعة بين لغة الأدب ولغة المحادثة ، ولم تكن هناك لغة خاصة وأخرى دارجة ، وحين نفترض الفرق الشاسع بين اللغتين ، تكون المشكلة التى تعرض لنا أضخم وأعرض وأدق ، لأن هؤلاء العامة الذين لم يكونوا يلمون بالعربية حقا ليسوا أهلا لأن يتحداهم القرآن ، لأنهم لا يملكون وسائله

وفصل « الزائد » « ص ٩٥ » ، ولكن ، من الذى قال إن هذه الكلمات زائدة ؟ ... النحاة ، ومن الذى أوصل النحاة إلى ذلك ؟ وضعوا قواعد ، فلما اصطدمت هذه الكلمات بما قصدوا ، لم يعترفوا بعجز أو تقصير ، وإنما نسبوا إلى القرآن ماليس فيه ، ثم أتى البلاغيون يدعمون قولهم ، قضية مفترضة لا تحتاج إلى جهد أو عناء ... القرآن فى ذروة البلاغة ، هذه قضية نسلم بها جميعاً ، فعلى النحاة حين يريدون أن يخضعوا القرآن لقواعدهم أن يعدلوها بما يسايره ، دون أن يضطرونا إلى التأويل والتخريج ، وإلا فهم الواهمون ! ...

أما « التشبيه فى القرآن » « ص ١٨٧ » فأغنى مافى الكتاب وأجدر فصوله بالاطلاع والتدبر والقراءة ، فلم يشأ أستاذنا أن يجارى البلاغيين القدماء فيما استنوه للتشبيه من قواعد ، فمضى يهدمها فى رفق وهدوء وأناة ، ولكنه لم يذر لهم مما فننوا شيئاً ، فليس صحيحاً أن أبلغ التشبيه أغربه ، وإن أقواه أندره ، وإنما مرد القوة والحسن، وقع التشبيه على النفس وشعورها به سروراً أو ألماً ، وهو كلام صحيح قوى إلى حد بعيد !

وشبيه بهذا « التصوير بالاستعارة ص ٢١٧ » « ومجازات القرآن ص ٢٢٣ » « والأسلوب القرآنى ص ٢٤٤ » وفى كل منها دراسة قيمة موفقة وعرض جذاب لم يسبق إليه ! . .

ثم تأتى « القصة فى القرآن ص ٢٦٧ » عرضها لنا الأستاذ الفاضل تفسيراً ، لم يعرض لمشكلة القصة ذاتها من قريب أو بعيد ، قصة صدقها حرفيا ، هل هى وقائع حدثت كما صورها القرآن تاماً ؟ فلم يتصرف فيها بحذف أو زيادة ، وفقا لما يهدف إليه من عظة واعتبار ؟ ..

هذه هى المشكلة ! ...

وأخيراً يعرض « لبعض صور الحياة الجاهلية » فى القرآن « ص ٣٧٩ » ونحن نعلم أن الإسلام جاء فشوه وهدم كل ماهو عربى وثنى ، وكان نقده وتقريعه منصبا على رءوس المسائل الكبرى وأصولها ، أما جزئياتها ، أما تفصيلاتها ، أما حسنات هؤلاء القوم ، فقد سكت عنها القرآن سكوتا تاما ، لا ... بل يبدو أن الإسلام كان عاملا فى القضاء على التاريخ الجاهلى بحسناته وسيئاته على السواء ، فلم يعرف عنه أى شىء ، وظل العرب الأول والمعاصرون لمولد الإسلام ، شعبا بلاتاريخ والعقبة الكبرى هى الوصول إلى هذه الحقائق ، وعلى ضوء ما يتكشف منها ، يكون التفسير للآيات القرآنية التى عرضت للحياة الجاهلية ، وتبين مافيها من بلاغة وإعجاز ، أما السماع للحجج من طرف واحد ، فيجعلنا عاجزين عن فهم كل شىء

وبعد ... فقد نختلف فى الرأى ، ونتباعد فى النظرة ، ولكنا نلتقى دواماً عند هدف واحد ، علمنا أستاذنا إياه ، هو أن نقول كل مانعتقد حين نعرض لشىء جديد ، وبالروح السمحة التى كنا نلتقى بها فى الدرس ، قد عرضت لمؤلفه الجديد ، وإن يقعد بى مرض فى الرأى ، أو غرض فى القصد ، عن الإشادة بهذا الكتاب ، فهو دراسة عميقة حديثة ، لموضوع قد تعرض له الكتب القديمة ، ولكنه لم يحظ فى دراستنا الحديثة بأى نصيب ، وهو يتسم — ككل ما كتب الأستاذ أحمد بدوى — بالعبارة الرصينة ، والأسلوب الجزل ، والعرض البارع ، والدرس العميق ...

وإلى اللقاء مع أستاذنا فى مؤلفه الجديد القادم ، وسيصدر عمـــا قريب !

الطاهر أحمد مكى

كلية دار العلوم — جامعة فؤاد الأول

الأسس المبتكرة

لدراسة الأدب الجاهلي

تأليف الأستاذ عبد العزيز مرزوع الأزهري

هذا الكتاب من الكتب الأدبية العصرية التي تستحق أن يطلع عليها الأدباء ، فهو محاولة موفقة لتحديد الأزمان الجاهلية عند العرب ، وربط كل أثر من آثار الأدب الجاهلي بجيل معين محدود بالتاريخ الهجري والميلادي معاً .

وقد استطاع المؤلف بهذا أن يبرهن على أن من الآثار الأدبية عند العرب ما سبق الهجرة بأكثر من سبعة قرون ، في الوقت الذي يكاد يجمع رواد الأدب العربي على أن أقدم الآثار العربية التي بين أيدينا لا تتجاوز الهجرة بأكثر من قرن ونصف قرن

ومما يجعل لنظريته آثاراً خطيرة أن من الأدلة التي اعتمد عليها بعض النقوش الأثرية التي يرجع تاريخها إلى سنة ٣٢٣ ق هـ

لقد اعتمد المؤلف على سلاسل الأنساب العربية ، وتحديد المتوسط لعدد الأشخاص الذين انتظمتهم سلاسل النسب من عصر النبوة إلى (عدنان) عند العدنانيين وإلى (قحطان) عند القحطانيين ؛ وقد وجد متوسط الأجيال العدنانية بين هذين الطرفين ٢٢٫٦٥٠ جيلا ، ومتوسط الأجيال القحطانية بينهما ٣١ جيلا ؛ ثم تابع البحث فرأى أن هذين المتوسطين لا جدوى منهما مالم يقدر العمر المتوسط لكل جيل في تلك السلاسل ، فظل يبحث وينقب أكثر من عشر سنوات ، اطلع في خلالها على مئات من المراجع غربية وشرقية حتى اهتدى بعد طول العناء إلى أن أنسب عدد لعمر الجيل هو ٤٠ سنة وقد ذكر من أدلته على هذا التحديد في كتابه ١٢ دليلا جعل آخرها مشتقا من قوله تعالى في القرآن في سيرة بني إسرائيل الذين نزحوا من مصر مع موسى :

(فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) ورجع إلى المفسرين فوجدهم قد أجمعوا على أن الذنب في تحديد هذا العدد هو انقراض الجيل السابق الذي طبع على الذلة والمسكنة في مصر ؛ ورجع إلى التوراة فوجده مصدقا لما بين يديه من القرآن ونصه هذا:

وبذا صار في مكنته كل أديب - بعد اليوم - أن يعرف تاريخ أي أثر أدبي للجاهليين إذا نسبت إلى قائله ، وقد طبق نظريته على كثير جداً من الشخصيات البارزة في تلك الأحقاب ، وكان من أمثلته التي سأكتفي بها هنا حكيم العرب المشهور (عامر بن الظرب العدواني العدناني) وقد سار في تحديد زمانه هكذا :

(١) من عامر إلى عدنان ١٢ جيلا

(٢) ويطرحها من المتوسط العام لأجيال العدنانيين من عصر النبوة إلى عدنان نجد الباقي ٩ أجيال

(٣) و ٩ و ٤٠ يساوي ٣٦٠ سنة هي التي تدل على عمر عامر في سن الأربعين

(٤) مكان ميلاده كان حوالي ٤٠٠ ق هـ (٢٢٤ م)

وقد قسم الكتاب إلى أربعة أقسام تطبيقا لنظريته :

١ — (القسم الأول) أثبت فيه أن الأمثال المنسوبة إلى أصحابها أقدم الآثار العربية ؛ لأن البسيط أقدم من المركب ؛ والأمثال أبسط من المقطوعات ومن القصائد ، لهذا بسط القول فيها بهذا الترتيب وقد حقق في هذا القسم أن أقدم ما عثر عليه من الأمثال قول (الأفعى الجرهمي) إن العصا من العصية

(٢) والقسم الثاني (المقطوعات الشعرية) وقد حقق فيه أن أقدم المقطوعات التي عثر عليها منسوبة لطي بن أدد القحطاني ، فاتخذ من هذا وسيلة إلى تحديد الزمن الذي ذابت فيه لغة القحطانيين في لغة العدنانيين أصحاب هذه اللهجة وقد أرجع تاريخ هذا الأثر حوالي سنة ٧٠٠ ق هـ (٥٧ ق م)

٣ — والقسم الثالث شعراء القصائد في الجاهلية وآثارهم وقد أثبت فيه أن أقدمهم الشاعر النميمي (ذؤيب) وحقق أنه كان في سن الميلاد حوالي ٤٣٥ ق هـ ويليه (لقيط الإيادي) صاحب أطول قصيدة وصلت إلينا وأقدمها وأن تاريخها يرتد إلى ٣٠٦ ق هـ

٤ — والقسم الرابع وهو الأخير أثبت فيه بأدلة قاطعة أن اللهجة التي نزل بها القرآن ليست لقريش ! وقد توج أدلته (بنقش النمارة) المشهور المنقوش سنة ٣٠٣ ق هـ (٣٢٨ م) وهي السنة التي توفي فيها صاحب الملك امرؤ القيس بن عمرو ، فيرى من هذا أن الكتاب ظريف ممتع ، جديد في موضوعه ، وفي أسلوبه ، وفي الاستدلال على ما فيه من نظريات

ولا يضير الكتاب بعد هذا أن بعض مباحثه مضغوط إلى درجة قريبة من الأحاجي

م ع